نظم وبناء النّص الأدبي عند الإمام عبد القاهر الجرجاني

Organize and build the literary text of Imam Abd al-Qaher al-Jarjani

د.عبد الكريم محمودي*

جامعة ابوقاسم سعد الله –الجزائر2.

mahmoudi.abdelkrim80@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/11/23 تاريخ القبول:2021/04/23 تاريخ النشر: 2020/08/20

ملخص:

دار حول هذه قضية بناء النّص وقضية الشكل والدّلالة، نقاش كبير بين المتكلّمين والبلاغيين فالكثير من قضايا علم الكلام ارتبطت باللّفظ والمعنى فكانت الخطابة وسيلتهم الأساسية في الرّد على الخصوم من خلال العناية باللّفظ وتركيب الكلام،لأنّ اللغة العربية تملك خصوصية ترجع إلى محددات المعنى وهي الحركات،ومكونات اللّفظالحروف والوظيفة المنطقية للصورة الصوتية وهي الأوزان، في حين نجد البلاغيين عالجوا النّص الأدبي، وخاصّة في العصر الأدبي العبّاسي والّذي عُرف بالعصر الذّهبي عند العرب في كل المجالات المعرفية، في العلم والأدب والفلسفة وغيرها، واهتمّوا بالبلاغة وآلياتها في تحليل النّص الأدبي.

يعالج هذا البحث أبرز المعالم التي ناقشها الجرجاني فيما يخص نظم النّص و الرّبط بين اللفظ والمعنى، ومن نتائج هذا البحث هو أنّ: عبد القاهر الجرجاني أفضل من مثل النّظرة التّكاملية بين اللّفظ ومعناه، وفصل فيها باسم نظرية النّظم أي أنّ اللّغة في الشعر وحده لا تتجزأ ولا يمكن أن نعتبر كل من اللّفظ والمعنى عالما مستقلا بذاته.

كلمات مفتاحيّة:

النّظرية؛ النّظم؛ النّص؛ اللّغة؛ معالم، عبد القاهر الجرجاني .

Abstract:

Many of the issues related to speech and meaning were rhetoric and their basic method of responding to the adversaries through the care of the pronunciation and the composition of speech, because the Arabic language has a specificity due to the determinants of meaning, While the linguists addressed the literary text, and took care of the rhetoric and mechanisms in the analysis of the text.This research deals with the main ideas discussed by Al-Jarjani regarding the construction of the text and the connection between the word and the meaning, and the results of this research is that: Abdul Qahir Al-Jerjani is better than attributed to him the complementary view between the word and its meaning.

Keywords:

Text. the theory. The language. Construction Text. Abdul Qahir Al-Jerjani.

1– مقدّمة:

يمكن الإشارة إلى أنّ قضيّة اللّفظ والمعنى و بناء النّص، ليست سمة عربيّة قديمة بل نجد لها جذورا في الفكر اليوناني عند أرسطو حيث كان يرى العلاقة بين اللفظ و المعنى هي اصطلاحية عرفية تواضع عليها الناس وعالجها في مقالات الشعر و الخطابأمّا أفلاطون فقد عالجها في محاوراته مع أستاذه سقراط، غير أنّ هذه القضية ارتبطت كذلك في الدّراسات النّقدية بالتّأويل وهو أن يكون النّص منفتحا على معان كثيرة،فالنّص الأدبي خاصة يحتمل عدة تأويلات، بل إن كثرتها تزيد من قيمته و قد يمنح القارئ معان قد لا تخطر حتى على منتج النّص.

كما أنّ عالج عبد القاهر الجرجاني عالج ثنائية اللّفظ والمعنى انطلاقاً من الجمال الذي يظهر في التركيب الإنشائي بين الألفاظ فهو لم يمل إلى النظرة في المعنى منفرداً أو اللّفظ منفرداً، وأقرّ بأنّ اللّفظة المفردة تزداد أهميتها عندما تدخل في التركيب والتأليف، حيث ربط بين اللّفظ والمعنى بالصورة الأدبية أو النّظم و البناء اللّغوي للنّص.

2– اللّفظة والتّأليف:

يقول عبد القاهر الجرجاني:"ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً، وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل لإفادتها إلاّ بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللّفظتين تفاضل في الدّلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت من صاحبتها على ما هي موسومة به ."[1]

فهو يشير إلى الناقد الأدبي ألا ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف ولا يمكن أن نفاضل بينما وبين أخواتها أيضاً ،فجودة اللّفظة ورداءتها تظهر عند توظيفها في التّركيب فعبد القاهر جاء لفك الجدال بين أنصار اللّفظ وأنصار المعنى، وحاول التوفيق بينهما بمفهوم نظرية النظم ويُبين أنّ اللّفظة لا يمكن أن نفاضل بينها وبيّن أخواتها في حالات خاصة خارج التأليف، فمثلاً كأنّ تكون مستعملة أو غريبة ،أو وحشية ،أو حروفها خفيفة حيث يقول :"وهل يقع في وهم وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية أو أن تكون حروفُ هذه أخف وامتزاجها أحسن ،وممّا يَكُدُّ اللّسان أبعد."[2]

فاللّفظة في اللّغة العربية أو غيرها من اللّغات سواء كانت شفهية أو مكتوبة تحمل دلالة معنوية بلفظ معانيه المختلفة خارج التأليف، لكن عندما تدخل في التأليف يكون له معنى خاص وحينئذ ننعت هذه اللّفظة فصيحة والأخرى مستكرهة فتجد أحداً يقول :"هذه اللّفظة فصيحة، إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم ،وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها، وفضلُ مؤانستها لأخواتها."[3]

ففصاحة اللّفظة تكتسب من موقعها في التأليف وملائمة معناها لأخواتها ولذلك نجد عبد القاهر الجرجاني ذهب إلى أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه العجيب الذي أدهش العرب وعجز عن الإتيان بمثله كبار البلغاء،فجمال التعبير لا ينتج إلاّ عن الأديب الذي يتفنن في توظيف تقنيات التعبير الأسلوبي التي تكتسب بالمران والتجربة، فالألفاظ بمثابة اللسان في البناء فأحياناً اللبنة تصلح في هذا المكان ولا تصلح في ذاك ،كذلك اللّفظة تراها تؤنسك في موضع

وتوحشك في موضع آخر مع أنّ اللّفظة واحدة لم تتغير،ويؤكد عبد القاهر هذا الكلام في قوله: " فقد اتضح إذاً اتضاحاً لا يدعُ للشك مجالاً أنّ الألفاظ لا تتفاضلُ من حيث هي ألفاظا مجردة ،ولا من حيث هي كلمٌ مفردة ،وأنّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة ،وخلافها في ملائمة اللّفظة لمعنى التي تليها ،أو ما أشبه ذلك مما لا تعلقُ له بصريح اللّفظ."[4]

فعندما يحدث خلل في البناء التركيبي والتصويري للعبارات الأدبية ينتج عنه الأثر السلبي للمتلقي ،وهذا بعكس الأثر الجمالي الذي يؤثر في نفس المتلقي عندما يغيب الخلل ويحل محل الأثر السلبي الأريحية والأنس والرضا لمعاني التركيب الأدبي، والفرق بين الأساليب ليس "فرقاً في الحركات وما يطرأ على الكلمات، وإنما في معاني العبارات التي يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق ولذلك فليست العمدة في معرفة قواعد النحو وحدها ولكن فيما تؤدي إليه هذه القواعد والأصول، أي أنّ الهدف منها الدلالة على المعنى. "[5]

يتبين من هذا أن عبد القاهر لا يفرق بين الأساليب من خلال نسج الألفاظ بل يفرق بينها من حيث الدلالة التي تنتج عنها، فهو لا يعتمد في تحليله على الشكل فقط بل يربط بينه و بين الدلالة تحت مصطلح النظم.

3 ـ نظرية النّظم و البناء النّصي عند عبد القاهـر الجرجاني :

يؤكد عبد القاهر الجرجاني أنّه لامزيه للفظة قبل دخولها في نظم معين والهدف الأساس من الألفاظ هو انضمامها إلى بعضها البعض وفق قوانين النحو العربي وتركيب المعاني الناتجة

عن هذا النظم، وهذا كله من أجل تبليغ المعنى على أحسن ما يُرام فهو بهذه النظرية هاجم الذين أسرفوا في تعظيم شأن اللفظ حيث يقول :" اعلم أنّ ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله ،وتعرف مناهجه التي نهجت ،فلا تزيغُ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ،فلا تُخلَّ بشيء منها ،وذلك أننا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أنّ ينظر في وجوه كل باب وفروقه. "[6]

فنلاحظ أنّ عملية النظم شاملة تحتوي على شكل ومضمون النّص، ونقصد بالشكل توخي معاني النحو العربي وتطابقه مع قوانينه في الحركة بمختلف أنواعها، والسكون ومضمون

النّص هو المعنى العام له، فيشترط أنْ تكون المعاني مرتبة في نفس المؤلف ولا يكون تضارب بينهما ويحسن نسج النّص فهذه العملية ليست بسيطة بل هي معقدة لا يفك شفرتها إلا الحاذق والعالم بأسرار الإنشاء الأدبي، لأنّ ما يفسد النّظم هو سوء التأليف وعدم الاهتمام الكبير بموقع اللّفظة هذه هي مشكلة التعبير الأدبي ،أي أنّ المؤلف متى وضعها في موقعها ونظر إلى أنّها تصلح للتي قبلها والتي بعدها ،فإنّه أصاب الفائدة من النّظم.

وإذا ثبت أنّ سبب فساد النظم واختلاله أنه"لا يعمل بقوانين هذا الشأن ثبت أن سبب صحته أن يعمل عليها ،ثم إذا ثبت أن مستنبط صحته وفساده من هذا العلم ثبت أن الحكم كذلك في مزيته والفضيلة التي تعرضُ فيه ،وإذا ثبت جميع ذلك ثبت أن ليس هو شيئاً غير توخي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم. "[7] فالنّظم عند الجرجاني قوانين خاصة ،و خرق هذه يفسد النظم ،أمّا في حالة احترامها فتزداد صحة النظم وقوته وبلاغته ،فالنظم شبيه بالبناء ،فهناك بناء هش وآخر قوى وصلب، كذلك النظم يقوى ويضعف ،فالنظم تعليق "الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، وهو ما درسه العرب في كتبهم النحوية قبل أن يتخذه عبد القاهر أساساً لنظريته في البلاغة والنقد والموضوعات التي دخلت في نظرية النظم ليست جديدة وإنّما الجدة فيها استغلالها وفي تصوير محاسن الكلام وإظهار ما فيه من روعة وتأثير.

ولو مَضَيْنا نستعرض فكرة النظم لرأينا بذورها فيما كتبه النحاة البلاغيون ومؤلفو كتب إعجاز القرآن. "[8] فالجديد في هذه النّظرية هو أن نجمع بين ضم اللفظة إلى أخواتها بمراعاة مقتضيات النّحو من أجل خلق نص جمالي مؤثر وفعال في نفسية المتلقي ويمكن أن نشير هنا أن نظرية النظم ليست إبداعا خالصا لعبد القاهر، فقد أشار إليها غيره من النقاد الذين سبقوه ،لكن الشيئ الذي يحسب له أنّه توسع فيها وقعد لها وتناولها من جوانب عدة لذلك نسبت فيما بعد إليه،ففي دراسات أرسطو البلاغية والنقدية "حديث عن أجزاء القول فقد عقد في كتابه فن الشعر فصلاً تكلم فيه على أقسام الكلمة، والفروق بين أقسامها و المقاطع و الحروف و الأصوات وغيرها من المسائل التي رآها ضرورية في البلاغة. "[9]

والفروقات بينهما يعني أنّه عالج أجزاء الكلام الاسم و الفعل والحرف وكل منها مادة أولية للنظم كما تحدث أرسطو" في المقالة الثالثة من كتاب الخطابة عن مراعاة الربط بين الجمل والأسلوب المفصل والأسلوب المقطع ،وحذف أدوات الوصل والتكرار ومعنى ذلك أنّ أرسطو اتخذ من هذه الموضوعات أساساً في دراسته للأساليب و التمييز بينها ولا سيما أسلوب الخطابة."[10] كما يبين أن الخطبة ينبغي "ألا تكون خالية من الإيقاع لأنه يساعد على الإقناع، فالنثر ينبغي أن يكون إيقاعيا و غير موزون."[11]

فالخطابة غايتها الأولى الإقناع والتأثير في جمهور المتلقين ،فيجب على الخطيب انتقاء أحسن وأفضل الألفاظ والعبارات والتركيب، فهو بحاجة ماسة إلى نظم هذه الألفاظ ، فالخطبة هي بنية لغوية وحدتها الأساسية اللّفظ والجملة تخضع لقواعد و قوانين تنظمها وتبنيها في سياق تبليغي لضمان بلوغ مقصدها إلى المرسل إليه، وجلب أكبر قدر ممكن من المستمعين. وذكر الباحثون أنّ "الهنود عَنَوْ بنظرية النّظم ،وقد وصلت هذه العناية عندهم إلى مستوى من الدقة والاستقصاء لا يقل عما وصل إليه نقاد الأدب في البيئات الأخرى."[12]

معنى ذلك أن نظرية النظم كان لها بعد كبير قبل عبد القاهر الجرجاني "وليس أمامنا من هذه الدراسات ما يوضح فكرة النظم عند الهنود أو بلاغتهم سوى ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين عن الصحيفة الهندية، وما جاء فيها من أصول تتصل بالخطيب وصفاته وبالأسلوب ،وما ذكره البيروني في تأريخ الهند ووضعه للمحاولات البلاغية التي كانت تتصل بقضية الإعجاز في كتابهم الديني. "[13]

كما نجد أن نظرية النظم عُولجت من قبل العالم اللّغوي الشهير سيبويه عندما وقف في التحليل والدراسة عند الجملة العربية، وكيف يحدث فيها تقديم وتأخير الأسماء والأفعال ،والحذف والإبدال والاختصاص ولعل سيبويه من أقدم" الذين وقفوا عند هذه الجوانب ودرسها بعمق في فصول الكتاب الشهير وأبوابه ،وأخذ عنه الآخرون من نحاة وبلاغيين ونقاد أصوله وبنو عليها نظرياتهم، لكن سيبويه والنحاة لم يسموا هذه البحوث نظماً وإنّما هي قواعد تسير عليها العرب في كلامها أو إنشائها. "[14]

نرى من خلال هذا القول أن سيبويه درس أسس نظرية النظم ولكن لم يطلق عليها هذا الاسم كما نجد الجاحظ ألّف كتاب نظم القرآن انطلاقاً من فكرة الإعجاز القرآني، التي شغلت الكثير من اللغويين والبلاغيين، باعتبار أنّ القرآن الكريم ارتقى في بلاغته عن مستوى التعبير الإنساني وأشار الجاحظ إلى أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه وبديع تأليفه، حيث يقول: "وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنّه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد ،مع ما سوى ذلك من الدّلائل التي جاء بها مَنْ جاء به. "[15]

كما نجد فكرة النظم تتطور عن أبي سعيد السّرافي و"تأخذ صورة أكثر جلاء حينما تحدث عن معاني النحو وقال: معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ في ذلك،وإن زاغ شيء عن النعت فإنّه لا يخلو أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر و التأويل البعيد، أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم. "[16]

يتبين من هذا أن نظرية النظم لم يسبق إليها عبد القاهر الجرجاني ،بل تطرق إليها بعض النقاد والبلاغيين واللّغويين قبله وربطوها بالقرآن الكريم والنّحو العربي وحسن التأليف لأنّها تهدف إلى جمال النّص الأدبي الذي يقصده كل مؤلف بتوظيف اللبنات الأدبية أحسن استعمال فهناك من يصبوا إلى الهدف وآخر يخيب، فالأصل في النصوص الأدبية أن" تحدث تأثيراً في نفس المتلقي ،ولكن هذا التأثير يختلف ويتباين من دارس إلى دارس ومن ناقد إلى ناقد آخر والسبب في ذلك يرجع إلى عدة عوامل أهمها : دلالات الألفاظ غير المتساوية في الإفهام عند النّاس وتجارب النّاس ودرجة ذكائهم غير متساوية، واختلاف البيئات والمصادر والثقافات."[17]

فبراعة المؤلف تظهر في قوة التأثير،البشر ليس في درجة في الإفهام أو التأثير في بعضهم البعض ،وهذا الاختلاف مصدره دلالة الألفاظ وتوظيفها ،أي أنّ المؤلف يضع عالم آخر بالأسلوب الذي يتكلم به ،وبما أننا نقارن دائماً ما نقرأ بما نعرف، فقلما نستطيع تجنب مقارنة العوالم الأخرى بالعالم الذي نعيش فيه ،وقد" أوجز أولاس ستيفنس توقعاتنا المضطربة عن الكتب ومؤلفيها إيجازاً دقيقاً في مطلع إحدى قصائده عن لسان امرئ متخيل يواجه جمهوره.

قالوا :عندك قيثارة زرقاء .

ولكنك لا تعزف أشياء كما هي في واقعها.

فأجاب الرجل : الأشياء كما هي في واقعها تتغير بتغير على القيثارة الزرقاء. "[18]

هذا ما يدل على أن العالم الواقعي يستطيع المؤلّف أن يغيره كما يشاء ويريد، فالعالم الواقعي عند الشاعر مثلاً يتغير وفق ألفاظه وتعابيره ومعانيه.

ومن الأسباب التي دفعت إلى قيام نظرية النظم هو المتعلق بقضية اللّفظ والمعنى التي" أرّقت العديد من علماء النقد فمنهم كما هو معلوم . من انتصر للفظ تعصباً للعرب كونه مادّة الكلام الخام ،ومنهم من تعصّب للمعنى...لذلك كانت نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني إنكاراً لتلك الثنائية المضللة على حد تعبير حسان عيسي . وعودة إلى الوحدة أي أن يُعنى الناقد برؤية الصورة مجتمعة من الطرفين معاً دون فصل بينهما. "[19]

فعبد القاهر أراد أن يوفق بين الجدال الذي وقع بين أنصار اللفظ و المعنى حيث أشار إلى أنّ كل فريق أهمل طرفا مهما في التعبير أي أنّه دعا إلى الاهتمام بالطرفين دون تفضيل أحدهما على الآخر ،هذه النظرة حُظيت باهتمام كبير و ترحيب من النقاد والأدباء حيث أطلق عليها باسمالنظم أو الصورة أو التعليق .

أي تعليق الكلم بعض ببعض، والأساس الأوّل الذي انطلقت منه هذه الصورة هو إعجاز القرآن الكريم قبل أن تنتقل في حقل الدراسات الأدبية والنّقدية وأول من" ألقى بذرة الخلاف في حقل النقد العربي هو العتابي220هـ من ولد الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في قوله عن الشعر المحدث :الألفاظ أجساد والمعاني أرواح وإنّما تراها بعيون القلوب فإذا قدمت منها مؤخراً وأخرت منها مقدماً أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما أنّه لو حول رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رأس أو رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية ."[20]

والبلاغة في النّص الأدبي هي سحر إذا وظفت المعاني أحسن توظيف فالمتلقي لا يرى النّص الذي بيّن يديه بعينه بقدر ما يراه بقلبه وهنا يكمن دور التأثير، أي أنّ النّص الرفيع من حيث الجودة والبلاغة هو الذي يقع في قلب المتلقي فلكل لفظة من البناء اللّغوي مكانها المناسب.

ويمكن أنْ نشير إلى أنّ نظرية النظم تدعو النقاد إلى الاهتمام بالنّص من كل الجوانب، لأننا لا يمكن أن نجد قضية من قضايا النقد والأدب الحديثة والقديمة تنفصل عن ثنائية اللفظ والمعنى هي تدافع على مجمل النّص، وأهميته فأصبح النّص بعد كل هذا يشرَّح في الدراسة والتحليل و يستفهم عن كل عنصرين من عناصره، بل حتى علامات الترقيم لها دلالة معنوية تكتشف في التحليل،هذا ما نجده في المناهج النقدية المعاصرة على غرار الأسلوبية والبنيوية والسيميائية والتداولية، فإنّ هذه المناهج تعتمد على مستويات عدة من التحليل من بينها ،الأصوات والعلامات التراكيب و الدّلالات.

ومن الأسس و الدّعائم لنظرية النّظم هي :"هيئة اللفظة ،وحركة اللفظة موضع اللفظة ومعنى المعنى ونقصد بهيئة اللفظة محاولة عبد القاهر الجرجاني الجادّة في التمييز بين مدلول الجملة الفعلية والاسمية ،فالاسم يطلق ويراد به معنىً معين وكذلك الفعل." [21]

ونقصد بحركة اللّفظة الإعراب لأنّ هو الأثر الظاهر أو المضمر في أواخر الكلم الناتج عن عامل، فمتى تغيب حركة اللفظة تغير معناها ،فنظرية النظم لا تتوقف بين اللفظ والمعنى فقط بل يدخل النحو بينهما أي توخي معاني النّحو العربي ،ويقصد بمدلول موضع اللّفظ ،أنّ كل لفظة يلفظها الإنسان لها معنى خاص وثابت باستثناء الحروف التي لا تملك معنى في حد ذاتها بل تحمل معنى مع غيرها عندما تدخل التأليف ،لكنّه يؤكد بأنّ اللفظة عندما تكون في التّعبير الأدبي يزداد مدلولها إذا ائتلفت مع أخواتها.

فالموضع هو الذي يحدد المعنى وقد جعل عبد القاهر" هذه النقطة أهم محور في نظريته سيما إذا علمنا نحن أن قضية الموضع تخص العلوم الثمانية الخاصة بعلم المعاني ،انطلاقاً من الاستناد إلى غاية المساواة ،فتقديم الخبر على المبتدأ ،والمفعول عن الفعل وفاعله ،وقضايا الحذف والذكر،والتقديم والتأخير والوصل والفصل،و القصر والإنشاء والتعريف والتنكير كل هذه على علاقة وثيقة بالنظم."[22]أما فيما يخص معنى المعنى أنّ في بدايات النقد الأدبي كان النقاد يتحدثون عن المعنى ،لكن مع مرور الزمن ،استحدثوا مصطلحا آخر هو معنى المعنى و الذي تحدث عنها عبد القاهر الجرجاني فمثلاً عندما نقول: فلان كثير الرّماد ، هذه العبارة لها معنى أولي هو أنّ هذا

الإنسان يمتلك كمية كبيرة من الرّماد بدون أن نبحث عن سبب هذا الرماد لكن عندما نبحث في المسببات نفهم معنى آخر أوثان، هو أنّ هذا الإنسان يتميز بصفة الكرم ،وهذه الظاهرة نجدها في الصور البيانية كثيراً بمختلف أنواعها فالتأليف والتركيب هو سر هذا المعنى معنى المعنى.

يقول عبد القاهر: " وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أنّ المعنى الذي له كانت هذه الكلم، بيت شعرٍ وفصل خطاب ،هو ترتيبها على طريقة معلومة ،وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة ،وهذا الحكم. أعنى الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس ،المنتظمة فيها على قضية العقل."[23] فاللفظ عندما يوضع في غير محله يفسد النّظم و الصورة الشعرية.

4 ـ اللّفظ في منظور عبد القاهر الجرجاني :

يتمثل دور اللفظ في تأدية المعنى المقصود فلا يمكن تبليغ المعنى بالاستغناء عن اللفظ، حيث يرى عبد القاهر أنّ " الألفاظ هي خدم للمعاني والمصرفة في حكمها، والمعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها ،فمن نصر اللّفظ على المعنى كان كمن أزال الشيئ عن جهته و أحاله عن طبيعته ،لأنّ الألفاظ ليست إلاّ سمات للمعاني وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها فليس لها كبير قيمة من غير تأليف."[24]

فالألفاظ هي رموز للمعاني تدل عليها هذه هي وظيفة اللّغة كما عرفها ابن جني عندما قال: هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ومقاصدهم ، أي أنّ وظيفة هذه الألفاظ هي نقل المعاني وتلبية الحاجيات بين أفراد المجتمع وكانت نظرية هذه إلى اللّفظ سبباً في رفض فصاحة الألفاظ المفردة، كما ذهب إليه كثير من البلاغيين والنقاد ومنهم معاصره ابن سنان، لأنّها لا تكون في الكلم إفراداً ،وإنما في ضم بعضها إلى بعض ،وأنّ اللفظ يكون فصيحاً من أجل مزية تقع في معناه لا من أجل جرسه وصداه ،وهو لا يوجب له تلك الصفة مقطوعاً من الكلام الذي فيه ولكن يوجبها له ،موصولاً بغيره ومعلقاً بمعنى ما يليه من الألفاظ ."[25]

فاللفظ يكتسب الفصاحة ليس من أجل ذاته بل من المعنى الذي يصدره، ثم يقول عبد القاهر:" لا تخلو الفصاحة من أنّ تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع، أو أن تكون

صفة فيه معقول تعرف بالقلب فمحال أن تكون صفة اللّفظ محسوسة، لأنّها لو كانت كذلك لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحاً، وإذا بطل أن تكون محسوسة وجب الحكم ضرورة بأنّها صفة معقولة."[26]

فاللفظة الفصيحة في أي لغة تفهم بحاسة السمع أو بالقلب ولذلك لا يمكن أن يستوي المتلقون في فهمهم للفظ الفصيح.

5 ـ دلالة المعنى على المعنى :

سبق وأن ذكرنا أنّ الجملة في اللّغة العربية أو غيرها لا يتوقف معناها عند حد معين بل قد يتولد معنى آخر من هذا الأخير ونجد هذه الظاهرة اللّغوية في الصور البيانية، والمجاز بصفة عامة فالكناية أحياناً تكون أبلغ من المجاز والسبب في ذلك تولد معاني أخرى قد تكون غائبة لدى المتلقي.

يقول عبد القاهر: " ومن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللّفظ ، ثم لا تعترضك شبهة ولا يكون منك توقف في أنّها ليست له ولكن لمعناه قولهم : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ،ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه ،وقولهمُ : يدخل في الأذن بلا إذنٍ فهذا مما لا يشك العاقلُ في أنّهُ يرجعُ إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنّه لا يتصور أن يُراد به دلالة اللفظِ على معناه الذي وضع له في اللّغة. "[27]

فالبلاغة تظهر عند عبد القاهر في سبق المعنى للمتلقي من لفظه ولا يتحقق هذا إلاّ إذا كان هناك تلاؤم وتناسب بين اللفظ ومعناه ،لأنّ الحذف في الكتابة هو الذي يتلاعب بالألفاظ والمعاني كيفما يريد، ففي اللّغة توجد معاني ألفاظ أسرع إلى الأذن من معاني ألفاظ أخرى لأنّ التأليف ليس مهمة سهلة يمتهنها أيًّا كان من النّاس.

ثم يبين عبد القاهر الجرجاني في موضع آخر أنّ من شرط البلاغة أن يحيلك معنى على معنى آخر، وبالتالي تتعدد المعاني ويزاد الإفهام يقول: " وإذا كان ذلك كذلك عُلمَ علْمَ الضرورة أنّ مصرِفَ ذلك إلى دلالات المعاني على المعاني، وأنّهم أرادوا أنّ من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأوّل الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني و وسيطاً بينك وبينه، متمكناً في دلالته، مستقلاً بوساطته

، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة ويُشيِّر بك إليه أبيّن إشارةٍ حتى يُخيل إليك أنك فهمته من حاقِّ اللفظ ،وذلك لقلة الكلفة فيه عليك وسرعة وصوله إليك. "[28]

فالمتلقي عندما يتلقىّ النَّص الأدبي يدرك أنّ المعنى الأول أصبح وسيطاً بينه وبين المؤلف ومن خلال تولد المعنى، فإنّ الفهم يصل إلى المتلقي بسرعة وبأقل كلفة وتعب وجهد ،و" إن أردت أن تعرف ما حالهُ بالضدِّ من هذا فكان منقوص القوة في تأدية ما أريد منه، لأنّه يعترضهُما ويمنعهُ أن يقضيَ حقَّ السفارة فيما بينك وبيّن معناك ،ويوضح تمام الإيضاح عن مغزاك ،فانظر إلى قول العباسي بن الأخنف من شعراء الغزل ،من الطويل:

سَأطْلُبُ بُعدَ الدّارِ عَنْكُم لِتَقْرَبُوا وَتَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا"[29]

ويقصد بالضّد في هذا الموضع عدم دلالة المعنى على المعنى فالكلام يكون عادياً في الدلالة على معنى واحد ،لكن هنا تنقصه القوة في تأدية المعنى وسرعته للمتلقي لأنَّه يجد اعتراضات في قناة التواصل، كما أوضح في الفقرة السابقة ثم يشرح البيت السابق بقوله: "بدأ العباس بن الأحنف فدّل بسكب الدموع على ما يوجبُه الفراق من الحزن والكمد، فأحسن وأصاب لأنّ من شأن البكاء أبداً أن يكون أمارةً للحزن ،وأن يجعل دلالةً عليه ،وكنايةً عنه كقولهم :أبكاني وأضحكني على معنى ، ساءني وسرني. "[30]

فالشاعر في هذا البيت يطلب من أصدقائه أن يبتعد عنهم وبطبيعة الحال هذا الابتعاد لا يدوم فتحصل عنه الاقتراب منه ،وكذلك يريد الحزن الذي يسبب البكاء في أحيان كثيرة ،وينتظر في نفس الوقت السّرور الذي يأتي بعد هذا الحزن والبكاء.

ثم يشرح عبد القاهر كيف حصل نقصان القوة في تأدية المعنى في بيت العباس بن الأحنف يقول: " ثم ساق هذا القياس إلى نقيضه فالتمسَ أن يدل على ما يوجبُه دوام التلاقي من السرور بقوله:لتجمد وظنَّ أنَّ الجمود يبلغُ له في إفادةِ المسرّة والسلامة من الحزن، ما بلغ سكب الدمع في الدلالة على الكآبة والوقوع في الحزن،ونظر إلى أنّ الجمود خلُقُ العين من البكاء وانتقاءُ الدموع عنها ،وأنّه إذا قال:لتجمد فكأنّهُ قال :أحزنُ اليوم لئلاَ أحزنُ غداً وتبكي عيناي جهدهما لئلا تبكيا أبداً وغلِط فيما ظن. "[31]

نلاحظ أن عبد القاهر سلط الضوء على لفظتين : الدموع و التَجْمُد وشرّح هذا البيت أحسن تشريح وبيّن الخطأ الذي وقع فيه بالنسبة لمعنى الجمود الذي يقصد به وقف العين على البكاء وحلول المسرة حيث يتبين هذا في قوله: " وذاك أنَّ الجمود هو أن لا تبكي العين مع أنّ الحال حال البكاء ،ومع أنّ العين يُرادُ منها أن تبكي ،ويُشتكي من أن لا تبكي ، لذلك لا ترى أحداً يذكر عينه بالجمود إلا وهو يشكوها ويذُمُّها ،وينسبها إلى البخل ،ويعدُّ امتناعها من البكاء تركاً لمعونة صاحبها على ما به مِنَ الهمّ ."[32]

فحدث الخلل في البيت السابق بسبب معنى كلمةجمود ،عند الشاعر يقصد به شيء وفي عامة النّاس يقصد بها شيء آخر، إذن المتلقي هنا عندما يسمع هذا البيت يقع في حيرة أيُّ معنى يقصد الشاعر الأوّل أم الثاني؟ وبالتالي هذا لم يسبق المعنى لفظه بقوله :" وجملة الأمر أنّا لا نعلم أحداً جعل جمود العين دليل سُرور، وأمارة غبطة وكناية عن أنّ الحال حالُ فرحٍ ، فهذا مثالُ فيما هو بالضد مما شرطوا من أن لا يكون لفظهُ أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك لأنك ترى اللفظ يصلُ إلى سمعك،وتحتاجُ إلى أن تُحِبَّ وتوضِعَ في طلب المعنى."[33]

فقد يكون الإنسان جامدة عينه ولكنه ليس مسروراً أي يعيش حزن كبير لم يترجمه للعامة بالبكاء ،ويجري لك هذا الشرح و التّفسير في" النظم كما جرى في اللفظ ،لأنّهُ إذا كان النظمُ سوياً ،والتأليف مستقيماً، كان وصولا لمعنى إلى قلبك تلِوَ وصولِ اللفظ إلى سمعك وإذا كان على خلاف ما ينبغيَ وصلَ اللفظ إلى السمع ،بقيتَ في المعنى تطلبه وتتعب فيه، وإذا أفرط الأمرُ فيذلك صارَ إلى التعقيد الذي قالوا :إنّه يستهلك المعنى. "[34]فعندما لا يستقيم التأليف لسبب معين قد يكون في اللّفظ أو المعنى ينتج عن التعقيد الذي يستهلك المعنى دون فائدة ومزية،وهذا الأخير هو عيوب البلاغة العربية وله عدة أنواع حظيت بالدراسة و التحليل في البلاغة العربية القديمة والحديثة.

6 ـ عبد القاهر وتجاوز إشكالية اللفظ والمعنى:

تجاوز عبد القاهر الجرجاني النقاد السابقين عليه ولم يعتمد عليهم في نصرة اللّفظ على حساب المعنى ،أو نصرة المعنى على حساب اللفظ، حيث أبرز رأيا خاصا به تمثل في نظرية النظم التي يمكن تلخيصها كما يلي :

يرى عبد القاهر أنّ اللفظ رمز " لمعناه،وهو في ذلك يتلاقى مع كل النقاد العالميين القدامى والمحدثين ومع مدرسة الرمزية في اللّغة ، فالكلمة رمز للفكرة أو التجربة أو العاطفة أو المعنى، وقيمتها فيما ترمز إليه وليست في البلاغة وحدها."[35] فاللّغة عند كل النّقاد هي مجموعة من الألفاظ المتفق عليها ،وهذه الألفاظ هي رموز لمعان توظف من أجل التواصل بين النّاس ،وهذه هي الوظيفة الأساسية للغة.

والعلاقات الأسلوبية بين الألفاظ هي في رأي عبد القاهر موطن البلاغة وهي ما "عبر عنه بالنظم، وما يعبر النقاد عنه بالشكل أو الصورة، فمن مجموعة العلاقات بين الألفاظ في النّص الأدبي تتكون الصورة وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية. "[36] فبيان البلاغة يظهر في نسج الألفاظ التي تتشكل عنها الصورة تضفي الجمال على الأدبية التي تظهر فيها البلاغة غير أن العنصر المهم عند عبد القاهر هو النظم.ويتضح المعنى اللغوي عندما نميز بين مقصد الخبر العادي ومقصد الإبداع الأدبي التي تتضمن الاستعارة والكناية و النسق الدّلالي،أي أن المتلقي هو الذي يشفر هذه العبارات ويؤولها ولا يغفل عبد القاهر "أهمية المعاني الثانوية ودلالتها الجمالية في النّص الأدبي سواء كانت هذه المعاني الثانوية لزومية،أومن مستتبعات التراكيب،أو أثر الرموز الصوتية وإيحاءات نفسية فهي التي تعطي الأسلوب دلالاته البلاغية وتمنحه قيمة جمالية. "[37] فالمتلقي يجب أن يربط بين النص ونفسية المبدع وكيف تحمل معـاناة شاقة في سبيل نسج هذا الإبـداع.

يتفق عبد القاهر مع النّقاد من العصر القديم والحديث حول أنّ الألفاظ أو الحروف هي رموز لمعاني تخطر على بال المرسل قصد نقل الأفكار إلى النّاس، لكنّه يختلف معهم في موطن البلاغة العربية بحيث يجعلها في الأسلوب وما اصطلح عليه بالنظم الذي لا يهمل فيه كل من اللفظ والمعنى، أي يجعلهما شريكين في البلاغة التي هي مراعاة مقتضى حال السامع أو المتلقي.

7– خاتمــة:

احتلّ الشّعر عند العرب مكانة رفيعة كانت العامل الرئيس في ظهور القضايا النّقدية التي تهدف إلى خدمة النّص الأدبي، فالنّقد موضوعه الأدب، ووظيفته تجويد هذا الأدب و تطويره وتذوّق ما فيه من القيم الفنيّة والجماليّة، التي ترتكز أساسا على قضية اللّفظ والمعنى عبر العصور المتلاحقة.

غير أنّ ثنائيّة اللّفظ والمعنى اشتدّت العناية بها في القرنين الثّالث والرّابع الهجريين، وكان المحفز لها هي فكرة الإعجاز في القرآن الكريم، فظهرت آراء عديدة حولها في العصر العباسي من قبل النقاد، فمنهم من يتعصب للفظ ويُدافع عنه، ومنهم من يتعصب للمعنى ويجعله قمة البلاغة، وهناك من حاول التوفيق بين الرأي الأول و الثاني، مع العلم أن هذه الإشكالية ليست عربية قديمة، بل كان لها حضور في الفكر اليوناني عند كل من أفلاطون وأرسطو.

أمّا عبد القاهر الجرجاني فهو أفضل من مثل النظرة التكاملية بين اللفظ معناه، وفصل فيها باسم نظرية النظم أي أن اللغة في الشعر وحده لا تتجزأ ولا يمكن أن نعتبر كل من اللفظ والمعنى عالما مستقلا بذاته، فنظرية اللفظ تُقر بارتباط اللفظ ومعناه، كما يلفت النظر بأن نظرية النظم الجرجانية ،حيث ذكرها الجاحظ قبله في كتابه البيان و التبيين، لكنه لم يؤسس لها قواعد ويوضح معناها مثل عبد القاهر، ومن أجلها نُسبت إليه، التي تعتمد على توخي معاني النحو بين الكلم، فعبد القاهر الجرجاني بنظريته وقف ضد أنصار اللفظ وأنصار المعنى.

8– قائمــة المصــادر والمراجــع:

1– أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق،ط1 ،1987 ج2.

2– أحمد مطلوب . المصطلحات البلاغية وتطورها ج3د و. مطبعة المجمع العلمي العراقي . 1987.

3– أحمد مطلوب ، عبد القاهر الجرجاني بلاغته و نقده ،ط1، دار العلم للملايين،1973 بيروت لبنان، وكالة المطبوعات، الكويت.

4- الجاحظ . الحيوان . ج4 . تح عبد السلام محمد هارون . ط2 مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

5- عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز شرح وتعليق ، محمد التُنجي . دار الكتاب العربي بيروت . لبنان . ط1 . 2005.

6- عراسي فيلالي . مسارات النقد العربي القديم . عرض لمراحل تطور النقد العربي وأبرز قضاياه . ط1 . منشورات فاصلة .2013قسنطينة . الجزائر .

7- ك .ك روثفن . قضايا في النقد الأدبي . ترجمة عبد الجبار المطلبي . دار الشؤون الثقافية العامة ط1. بغداد . العراق . 1989.

8- مراد عبد الرحمان مبروك، النظرية النقدية نظرية الاتصال الأدبي و تحليل الخطاب النص الشعري أنموذجا ،ج4،دار الأدهم، كلية الآداب، جامعة الملك عبد العزيز السعودية.

9- مصطفى خليل لكسواني و آخرون . في تذوق النّص الأدبي . دار صفاء . ط 1. 2010 عمان . الأردن .

9- الهوامـــش:

1 -عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز شرح وتعليق ، محمد التُنجي . دار الكتاب العربي بيروت . لبنان . ط1 . 2005 ص 47.

2 - عبد القاهـر الجرجاني، دلائل الإعجاز . ص 47.

3 -نفسه . ص 47.

4 -عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص48.

5 -أحمد مطلوب . المصطلحات البلاغية وتطورها. ج3د و. مطبعة المجمع العلمي العراقي . 1987. ص332.

6 -عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص70.

7 -نفسه، ص72.

8 –أحمد مطلوب ، عبد القاهر الجرجاني بلاغته و نقده ،ط1، دار العلم للملايين،1973، بيروت، لبنان، وكالة المطبوعات، الكويت،ص51.

9 –نفسه، ص51.

10 –نفسه، ص51.

11 –مراد عبد الرحمان مبروك، النظرية النقدية نظرية الاتصال الأدبي و تحليل الخطاب، النص الشعري أنموذجا ،ج4، دار الأدهم، كلية الآداب، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، ص29.

12 –أحمد مطلوب . عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده . ص 52.

13 –نفسه . ص.52.

14 –نفسه، ص52.

15 –الجاحظ . الحيوان . ج4 . تح عبد السلام محمد هارون . ط2. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . ص90.

16 –نقلاً عن: أحمد مطلوب . عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده . ص54.

17 –مصطفى خليل لكسواني و آخرون . في تذوق النّص الأدبي . دار صفاء . ط 1. 2010. عمان . الأردن . ص 34

18 –نقلاً عن: ك .ك روثفن . قضايا في النقد الأدبي . ترجمة عبد الجبار المطلبي . دار الشؤون الثقافية العامة ط1. بغداد . العراق . 1989.ص26.

19 –عراسي فيلالي . مسارات النقد العربي القديم . عرض لمراحل تطور النقد العربي وأبرز قضاياه . ط1 . منشورات فاصلة .2013قسنطينة . الجزائر . ص 179. 180.

20 –أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق،ط1 ،1987 ج2، ص281.

21 –عراس فيلالي . مسارات النقد العربي القديم . ص 182.

22 –نفسه . ص 189.

23 –عبد القاهر الجرجاني . أسرار البلاغة . تح :محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف .دار الجيل . بيروت . بيروت . ط1 . 1991. لبنان . ص 23.
24 –أحمد مطلوب . عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده . ص 100.
25 –نفسه ، ص101.
26 –عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص263.
27 –نفسه . ص 181.
28 –عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز . ص181.
29 –نفسه، ص182.
30 –نفسه ، ص182.
31 –عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز . ص 183.
32 –نفسه . ص 183.
33 –نفسه . ص 184.
34 –عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص184.
35 –مصطفى عبد الرحمان إبراهيم ، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص199.
36 –نفسه ،ص199.
37– مصطفى عبد الرّحمان إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص199.